

” ”))

” ” ”

”

((

ملحمة التاريخ الليبي المعاصر

•
•

يعتبارى مواطنا مصرياً عاش اعواماً من صباه وشبابه في ليبيا مختلطاً بتلاميذ مدارسها مرافقاً لوالدي الذي كان معلماً لابنائها فقد صرت احتفظت لليبيا في نفسي بمكانة تعادل مكانة بلادي مصر ، وقد ابتهجت ابتهاجاً عظيماً عندما قرأت ان هناك انجازاً روائياً عظيماً خرج من هذه البلاد يستلهم تريخها الحديث المليء بالكفاح والوان المكابدة والمعاناة ويعيد تقديمه للقراء من خلال الابداع الروائي ، وصرت الاحق هذا العمل في بعض مواقع الانترنت التي نشرت اجزاء منه مثل موقع صحيفة الصحراء المغربية وصحيفة ايلاف واخيراً موقع مجلة الكلمة ، وعرفت ان هناك طبعة محدودة خرجت في لبنان استباقاً للطبعة الاوسع والاكبر فاتصلت بناشرها دار الخيال ومديرها السيد جان عموس واستطعت الحصول على نسخة من الطبعة الجديدة المتعددة الاجزاء التي جاءت في ثلاثة الاف صفحة ، فقراتها منبهاً بما استطاعت الرواية اخراجه من كنوز مدفونة في رقائق التاريخ الليبي ، وما استخلصته من هذا الركام من الاحداث والوقائع ليصبح بالتالي اشبه بعملية تقطير في بوتقة الادب ويتحول الى هذه الصفحات من سحر البيان وجماليات الحكمة القصصية التي تجعل القاري لا يلتقى بلحظة ضجر واحدة وهو يعبر هذه الروايات الاثنا عشر راضياً بان يترك كل شيء آخر ويكرس وقته كاملاً لها بسبب استحواذها على كامل عقله ولبه وكنهه سعيداً وانا ارى ، هذا الاندهاش وهذا الترحيب الذي اظهره بعض النقاد ، ربما قبل ان تصبح الرواية بكامل اجزائها في متناول القراء ، ترحيباً لا اعتقد ان عملاً ادبياً عربياً سبق ان نال مثله او حظي بثناء واكبار كالذي حظى به هذا العمل الروائي الذي اسماه ناقد الحياة ملحمة التاريخ الليبي ، والذي يجعل كل ليبي يفخر بان تاريخه هو موضوع هذه الرواية وكاتب من بلاده هو الذي كتب اطول رواية في تاريخ الادب العربي المعاصر وحقق هذا الانجاز الذي يضعه النقاد بجوار اعظم وارقي ما عرفته الرواية العالمية من انجازات كما قال ناقد صحيفة الحياة الذي بشر العرب بظهور هذه الرواية التي تدشن عصراً جديداً للسرد الروائي العربي وتدخل به عصر الرواية الملحمية قائلاً بانها تقف جنباً الى جنب بجوار الحرب والسلام والدون الهادي لذلك رايت ان انقل لقراء موقع ليبيا وطني باعتباره اشهر وانجح المواقع المعنية بالشان الليبي هذه المقالات التي يستعد الناشر لوضعها في موقعه ، فتكرم بارسالها لي والتي اجمعت جميعها على قوة هذا الانجاز ونقلت الاخبار الطيبة للقراء بمولد اكبر رواية في العالم العربي ، وابداً بنشر كلمة الغلاف التي احتوت

اقتباسات قصيرة من شهادات اربع نقاد ليبيين قرأوا الرواية مخطوطة ثم القراءات التي قدمها كتاب عرب كبار لهذه الرواية بادئا بكلمة الغلاف التي احتوت الاقتباسات الاربعة المذكورة أنفا مع تعقيب للناشر ، وهذه هي فقط القطعة الاولى او القطرة الاولى من فيض المقالات التي لاشك ان هذا العمل سيحظى بها عندما يكتمل وصوله الى مكاتب الوطن العربي
وبجوار بعض الشهادات التي احتوتها كلمة الغلاف هناك كلمة الروائي العظيم الاستاذ ياسين رفاعية التي كتبها لصحيفة المستقبل ومقالة الاستاذ احمد زين الدين التي كانت اول مقالة صدرت عن الرواية ونشرها بصحيفة الحياة موجودة هنا بنصها في الصحيفة ، ثم مقالة اربعة كتبها الاستاذ احمد سعيد لصحيفة الشرق لاوسط وانقلها هنا حسب الترتيب الوارد أنفا:

كلمة الغلاف وتعقيب الناشر

"هناك شيء من العبقرية في كتاباته " هذا ما شهدت به صحيفة الجارديان اللندنية في معرض حديثها عن الكتب المترجمة للكاتب العربي الليبي الدكتور احمد ابراهيم الفقيه بعددها الصادر بتاريخ 2000/8/19 وهي عبقرية تؤكد مرة اخرى هذه الرواية الملحة التي يفخر الناشر بتقديمها للقارئ العربي ، وتاكيدا لاهمية هذا العمل الروائي الكبير فسنختار اربع شهادات لاربعة من اهل الاختصاص في مجال الدراسات الادبية ، قرأوه مخطوطا ، وقدموا افادتهم حوله ، اولهم أستاذ اللغة الفرنسية وآدابها في جامعة الفاتح ، الدكتور الهادي عبد العالي حنيش فهو يقول : بمثل ما كانت رواية مارسيل بروسست البحث عن الزمن الضائع ، الصادرة في مطلع القرن الماضي ، وهي الأطول في تاريخ الأدب الروائي ، تدشيننا لعصر جديد في السرد الروائي بالأدب الفرنسي ، فان هذه الرواية الملحة لاحمد ابراهيم الفقيه " خرائط الروح " التي ربما تكون الأطول في تاريخ الأدب الروائي العربي ، ستكون بالتأكيد تدشينا لمرحلة جديدة يدخلها هذا الجنس الأدبي في بلادنا على يد هذا الكاتب الفذ". ويقول الدكتور محمد وريث ، رئيس تحرير مجلة تراث الشعب " منذ الان فصاعدا نستطيع ان نقول ان الملاحم لم تعد مقتصرة على الشعر وحده، لان خرائط الروح هي ملحمة الرواية ". ويقول الناقد والكاتب القصصي احمد سعيد " خرائط الروح هي بمثابة الامتداد والتواصل لمسيرة السرديات الكبرى في الادب العالمي بدءا من ملحمتي الالياذه والاولديسة. الفقيه في خرائط الروح ليس مؤرخا ولا نبيا ، انه فقط يرسم بخرائطه امتدادا لخطوط الطول والعرض للكوميديا الانسانية التي خطها قبله سادة الكتابة . في خرائط الروح تستكشف ذاتك ، وترتحل نحو عوالم انسانية مليئة بالتناقض لتعرف نفسك ، حيث القرب مسافة ، والبعد مسافة ، وحيث النص يبقى هو القريب ، البعيد ، بلا مسافة " الروائي والناقد الذي انجز كتابا نقديا بعنوان نافخ الرماد حول ادب الفقيه عمر احمد جبريل يقول بان " هذا العمل الروائي تجاوز ما كنت احلم به للرواية العربية الليبية لانه جاء ليضع هذه الرواية في مصاف شوا مخ الاعمال السردية التي عرفها التاريخ ماضيا وحاضرا "

التعقيب

"اتممت الان عملا ، ليس في مقدور جوبيتير هدمه ، لا اللهب ولا الحديد، ولا الزمن الذي لا يشبع ، فليأت اليوم المحتوم متى شاء ، لن تكون له حقوق الا على جسدي ، فليضع حدا لمجرى حياتي الغامض ، الجزء الانبل في سينطلق خالدا، سيسمو على الكواكب ، وسيكون اسمي عصيا على الفناء ، واينما توغلت روما ، بعيدا في الارض التي تسودها ستقرأني الشعوب ، وانا الذائع الصيت ، ولئن صدق حدس الشعراء ساحيا على مدى الزمن " هكذا كتب الشاعر الروماني اوفيدوس بعد ان انتهى من كتابة ملحمة التحولات ، ولعل كاتبنا عربيا مثل احمد ابراهيم الفقيه انجز عملا روائيا ملحيميا مثل خرائط الروح ، جاء بعد اوفيدوس باكثر من الفي عام ، لن يستطيع ان يخاطب جوبيتير بذات اللغة لان جوبيتير نفسه انقرض وبقي اوفيدوس ولكنه يستطيع ان يفخر بانه قدم للادب العربي عملا سيكسبه مكانة متميزة على خريطة الادب العربي ، اعطى من خلاله صوتا لمكابدات شعبه الليبي لتبقى بهذا العمل حية في ذاكرة البشر على مر العصور ، وسيحفر اسمه فوق جدار الزمن ليبقى حاضرا في ازمنة قادمة ، مقروءا من اجيال لم تولد بعد

الناشر

الأديب السوري الأستاذ ياسين رفاعية أحد
عمالقة كتاب الرواية في العالم العربي يرحب بما
يراه أكبر انجاز روائي يتحقق في تاريخ السرد
العربي المعاصر
خرائط الروح عمل ابداعي غير مسبوق عربيا

احمد ابراهيم الفقيه
يرسم جدارية روائية هي الاضخم في تاريخ
الرواية العربية
ياسين رفاعية

كنت لا ازال في حالة نهم لمزيد من القراءة ، بعد ان انتهيت من
قراءة الرواية الثانية عشرة من الملحمة الروائية لاحمد ابراهيم الفقيه ، خرائط
الروح ، التي تأتي لتكون اطول واضخم رواية في تاريخ الادب العربي ، فهي رواية
تملك ما يمكن ان نسميه " قوة الغواية " التي تجعل القارئ يتوحد مع شخصياتها
ويندمج في وعوالمها ويستغرق في اجوائها مستمتعا بما في النص من لذة وما
يحفل به من زخم الحياة وحرارتها ، الى حد لا يريد معه ان يفارق هؤلاء الابطال
الذين اجاد الكاتب تصويرهم وكشف خلجات اعماقهم واسرار نفوسهم فانتصبوا
فوق الورق شخصيات تنبض بالحياة والحركة ، اكثر قوة وابعد غورا من
الشخصيات التي نعرفها في الواقع كما هو الحال مع كل ابداع جدير باسمه، ولهذا
فالقارئ يغادر صحبة هؤلاء الشخصيات ، ويرحل عن هذه الامكنة التي تألف
معها وهو يشعر بالحسرة والأسف لان اقامته لم تكن اطول وصحبته لم تتواصل
وتستمر مع شخصيات الرواية عبر اجزاء اخرى ، بسبب ما تجلى في الرواية من
براعة السرد والتصوير وروح الكشف والمغامرة والقبض على اجواء ومناخات
جديدة على الرواية العربية ، مما جعل من خرائط الروح تحفة ادبية ، لم يكن غريبا
ان يبدعها صاحب الثلاثية الشهيرة ، التي فازت بافضل عمل ابداعي في معرض
بيروت للكتاب العربي عام 1991، قدمها له دولة الرئيس عمر كرامي، وتعطل
اعواما عن اصدار اية رواية حتى فاجأ القراء بانجازه الجديد غير المسبوق في
تاريخ الرواية العربية ، الذي يشع بكثير من الوان الجمال والاتقان وتتجلى فيه
براعة الاداء الفني لكاتب يسيطر على ادواته ويملك زمام التقنيات الحديثة والتليدة
للسرد الروائي ، وينتقل في يسر وسهولة بين الاطروحة ونقيضها ، محاولا اقناعك
بهما الاثنين ، ليس من خلال ما تقوله الاطراف المتصارعة فقط ، ولكن من خلال
وجود هذه التناقضات في ذات الشخصية الرئيسية في الرواية ، التي يصدق عليها

ما قاله الشاعر مظفر النواب بان الواحد منا يحمل في الداخل ضده ، فرواية خرائط الروح ، في بعض جوانبها ، تجسيد لهذا المعنى ، عبر بطل اشكالي تراجيدي يحمل ذاتا تتحدى الظرف الزماني والمكاني الذي جاء فيه الى الوجود ، كما يظهره النص من خلال مكابذاته الروحية ، ومعاناته مع معطيات الواقع وما ينتج عن هذا الواقع القاسي العنيف من تحولات ومتغيرات تنتقل بهذه الروح صعودا وهبوطا وضعفا وقوة واذلالا وعزة وشموخا وسقوطا بما يجعل العنوان الكلي للرواية متحققا في كل الاجزاء .

وتتجلى قوة الكاتب في صناعة الحكمة الروائية ، مبتعدا عن المباشرة في سرد احداثه ، او السهولة في كشف اهدافه ومقاصده ، او وضع هذه الاهداف والمقاصد في قالب جامد ، انما هي احداث تتنامى وتتصاعد ، تتقاطع وتتباعد ، وتفترق وتتواصل ، دون ان يلحق أي خلل بانسجامها وتآلفها وارتباطها العضوي باهدافها ومقاصدها ودلالاتها ومضامينها ، بكل ما تتيحه عناصر السرد واستراتيجيات القص من امكانيات ، حيث يتراوح السرد بين الواقعي والاسطوري ، وبين الزمني والروحي ، وبين النسبي والمطلق ، مخترقا ازمنا تتصل بالماضي والحاضر والمستقبل ، مستفيدا من الزمن النسبي والزمن النفسي الذاتي ، دون اهمال للزمن التاريخي باعتباره وعاء الاحداث ومعادل الوجود الانساني نفسه الذي يبقى دائم الحضور بقوته وكثافته وفعالته وسيولته وتأثيره في الاماكن والشخصيات و بشكل يخدم تنامي خط القصة والسيطرة على حبكة الرواية ، حيث لا يخفى عن القارى ان الرقم 12 يعني فيما يعنيه اشهر السنة ، كما ان تقسيم الرواية الى اربع وحدات كل وحدة تضم ثلاث روايات ، انما يعني تشبيه الرواية بفصول العام ، كما جاء في المقدمة التي شرح فيها المؤلف استراتيجيات السرد التي استخدمها ، وهو يتعاطى مع مراحل تاريخية حافلة بانوع من الدراما الانسانية وزخم في الوقائع والشخصيات وتباين في الامكنة والازمنة و تيمات تتمتع بالجدة والبركاره رغم وجودها في اعمال اخرى الا انها في هذه الملحمة تكتسب ابعادا جديدة ، ربما لاتساع القماشة التي يرسم عليها عوالمه ويضع فوقها الوانه ، ويضرب فيها بريشته ضربات قوية تخترق المدى طولا وارتفاعا فتجد امامها البراح الذي يستوعبها ويمضي عبرها لاستكناه النفس البشرية والغوص في اعماقها وتقصى حقائق الوجود وطبيعة الحياة فوق الارض ، محاولا الوصول الى كنه الاشياء والاحداث وجوهرها ، دون الاكتفاء بالوقوف على السطح والتعامل مع الشكل الخارجي لحقائق الوجود ، فهي بحق رواية الاسئلة الكبيرة ، والقضايا المتفجرة ، التي تم تبليغها عبر لغة سرد قوية ، عامرة بالايحاءات والايقاعات والرموز والدلالات والاضواء والظلال ، متحررة من ربة القوالب المكرورة الباردة الجامدة والعبارات المستهلكة المسكوكة ، فهي لغة مشهدية ، طازجة ، مضمخة بروح الشعر وعبيره ، مع تحري الجدة في المعاني والافكار ، حيث لا وجود في هذه الرواية مثلا ، لتلك العادة التي درجت عليها بعض الاعمال الادبية في تقسيم البشر الى اشرار وطيبين ، والسلوك البشري الى ابيض واسود ، والعالم

الى خير مطلق او شر مطلق ، فكل هذه العناصر والالوان في حالة اشتباك واختلاط وتفاعل ، فالحاكم الاستعماري يمكن ان يكون له جانب انساني كما راينا في المارشال بالبو الحاكم العسكر الايطالي لليبيا ، يمثل ما يمكن ان يكون لعمر المختار ، شيخ الشهداء ، جوانب تستحق الانتقاد ، وهكذا تظهر نسبية الخير والشر وصراع الاثنيين في الذات البشرية ، وهو ما يجد تجليه قويا واضحا في الشخصية المركزية لهذه الرواية شخصية عثمان الحبشي ، كما يظهر من خلال سجل حياته الحافل بالاحداث ، المفرحة والاليمة ، والمواقف الشريفة والخالية من الشرف ، حيث تفلح هذه الرواية في تقديم بطل روائي اشكالي بكل المقاييس ، لا اجد له نظيرا في قوة حضوره ، في الرواية العربية ، سامقا ، مهيمنا على اجواء هذه الملحمة ، انه الشخصية الاكثر امتلاء وقوة وصدقا وعمقا وحضورا وتميزا وفرادة في كل ما عرفه الادب العربي من شخصيات روائية ، لانه البطل الوحيد الذى حظى بكل هذه الصفحات التي كتبت عنه ، وهذا العدد من الروايات التي ترصد فصول حياته ، وبقدر ما اعطته الرواية ، فقد اعطاها هو ايضا ، ليكون بدراما حياته وتلويناتها وخصوبتها ، موطننا من مواطن السحر والجمال فيها ، ولعله حان الوقت لان نعطي لمحة موجزة عن هذه الاحداث التي عاشها وشكلت مسار هذه الملحمة في اجزائها الاثنا عشر ، فقد رحل مطرودا منبوذا من بلدته اولاد الشيخ الواقعة على اطراف الصحراء ليعيش في طرابلس ، التي يحكمها حاكم ايطالي في مرحلة الثلاثينيات ، ونرى من خلاله طرابلس المدينة التي تحاول ان تتكيف مع الحياة تحت الاحتلال ، بكل الوانها المحلية وطبيعتها الكوزموبوليتانية ومعاناة اهله الليبيين من اجل لقمة العيش ، وفي هذه الاثناء يعيش اكثر من تجربة عاطفية احداها مع ثريا ، تمثل العذوبة والصفاء والنقاء ، والثانية مع حورية عشيقة الحاكم الايطالي ممزوجة بالتامر ، والسياسة ، حافلة بالولائم الجنسية ، وتتقاطع حياته في بعض مراحلها مع الحاكم الايطالي ، ويدخل معسكرات التجنيد الايطالية ، وتنتهي ثلاثية طرابلس برحيل البطل الى الحبشة ضمن جنود الحملة الايطالية على تلك البلاد ، لتكتمل بذلك الروايات الثلاث الاولى وهي (خيز المدينة ، افراح آثمة ، عارية تركض الروح) وتبدأ ثلاثية اخرى هي ثلاثية الحرب والحب والحياة في مجاهل القارة الافريقية حيث نلتقي ببينة الغابة والحياة البدائية التي تعيشها بعض القبائل هناك ، ولا تنتهي رحلة عثمان الشيخ الذى اكتسب بسبب حياته في الحبشة اسما جديدا هو عثمان الحبشي الا بتفجر الحرب العالمية الثانية التي خاضها في البداية مع الجيش الايطالي وقد وصل الى رتبة ضابط في ذلك الجيش ، احداث تستغرق ثلاث روايات هي (غبرة المسك ، زغاريد لاعراس الموت ، ذئاب ترقص في الغابة) ثم وتلبية لنداء المجاهدين الليبيين المناوئين للظليان والمتحالفين مع الحلفاء ، يسلم نفسه لاعداء الايطاليين ، وينخرط ضابطا مع الفيلق الليبي التابع للجيش الثامن الانجليزي ، وعندما تقع ليبيا تحت حكم الاحتلال البريطاني يلتحق عثمان الحبشي بالادارة الجديدة ، ليعمل ضابطا مسنولا على الامن في طرابلس ، لنلتقى مرة اخرى بثلاثية حافلة بالصراع الدولي والمحلي تنقل الاحداث التي عاشتها طرابلس قبيل ميلاد الدولة الليبية ، تستغرق احداث

هذه المرحلة الروايات الثلاث التي تحمل العناوين التالية (العودة الى مدن الرمل ، دوائر الحب المغلقة ، الخروج الى المتاهة) ولكنه قبل حلول الاستقلال يقع البطل ضحية مؤامرة رؤسائه في الادارة البريطانية الذين يريدون تلبسه الجرائم التي ارتكبت ضد المواطنين خلال مدة حكمهم ، وتقديمه باعتباره كبش فداء ، فيهرب منهم الى عمق الصحراء حيث نلتقى بثلاثية اخرى هي ثلاثية الصحراء الليبية بكل تراثها العربي وعمق توصلها مع محيطها في مصر وتونس والجزائر ، وصراع اهله مع قسوة الطبيعة ، واختيارهم الحياة وسط زوابعها وقيظها وعطشها ، باعتباره اختيارا لحياة الحرية بعيدا عن مدن الساحل التي يحتلها الغازي الاجنبي ، وهذه الروايات هي (هكذا غنت الجنيات ، قلت وداعا للريح ، نار في الصحراء) لا مجال في مثل هذه الاسطر لامكانية احتواء تيار الحياة الهادر بالتفاصيل الكثيرة والاحداث الجلييلة والصراعات التي تقع داخل النفوس وخارجها والشخصيات الرئيسية والثانوية التي تتقاطع مصائرهم وتختلف وتتفق وتتوحد وتفصل في صيرورة الحياة وزخم التحولات الكثيرة التي شهدتها تلك المراحل التاريخية التي تدور فيها احداث القصة والتي تستغرق عشرين عاما من عمر بطلها وعمر بلاده من منتصف الثلاثينيات الى منتصف الخمسينيات من القرن الماضي ، انها وان تناولت ليبيا وتاريخها وتاريخ محيطها العربي والافريقي الا انها رواية الحياة البشرية في ابعادها المختلفة ، ورواية الروح في شتى حالاتها ومسالكها وانتصارها وانتكاسها ، ورواية الابيض والاسود في النفس البشرية ، ورواية الاطروحة ونقيضها في الحياة ، وكمثال على ذلك فانه بجوار الاطروحة المناهضة للحرب هناك الاطروحة التي تتبناها احدى شخصيات الرواية ، تقبل الحرب وتدافع عنها ، وهي ايضا رواية الوعي الفردي مدموجا ومتقاطعا مع الوعي الجمعي ، ليجعل من بطل الرواية رغم كل تناقضاته ، وجوانب الخير والشر في افعاله ، تعبيراً عن ذات اكبر ، هي ذات المجموعة الانسانية التي ينتمي اليها ، والبيئة التي ظهر منها ، والهوية التي يحملها ، كما حملت الرواية تركيزا خاصا على بنية السلطة في المجتمعات العربية والياتها باعتبارها مفتاح المشاكل التي تعيشها هذه المجتمعات على المستوى العشائري ومستوى الحكم المحلي ومستوى الدولة ، وصولا الى بنية السلطة في الاسرة باعتبارها الجذر الاساسي للبنى الاخرى. كل ذلك نلتقى به مصاغاً ، في لغة هي مزيج من الشعر والنثر ، او نثر مكتوب بروح الشعر ، مما اعطى لغة السرد فريدة وقوة وجعلت بعض اجزاء الرواية تحتوي على صفحات ترقى الى مستوى ارفع واجمل ما كتب من نثر في اللغة العربية ، وبدراسة عميقة بالنفس البشرية وبناء فني متماسك ، استفاد من احداث منجزات السرد الروائي ، دون ان يهمل القواعد والاصول ، فيما اسماه زميلنا الكاتب الذي تخصص في قراءة الرواية العربية ونقدها الاستاذ احمد زين الدين ، وهو يتحدث عن هذه الرواية ، نيوكلاسيكية ، مما يحفزنا للقول بان احمد ابراهيم الفقيه استطاع ان يحقق انجازا غير مسبوق في الرواية العربية ويدخل بها كما قال الزميل زين الدين ، مرحلة جديدة ، هي مرحلة الرواية الملحمة ، ويكتب نصا سرديا يقف جنبا الى جنب مع شوامخ الاعمال الروائية الكبيرة مثل الحرب

والسلام والدون الهادي ء ، وغيرها من روايات عالمية متعددة الاجزاء اثرت الحياة الانسانية على مر العصور مثل موبى ديك لميلفل و عائلة بودنبروكس لتوماس مان والرقص على موسيقى الزمن لانتوني باول . انها الى هذا التاريخ والى ان يصدر عمل روائي آخر ييزها ، اكبر جدارية للرواية العربية ، استخدم فيها الكاتب معرفته العميقة بالتاريخ والتراث والدين والاساطير وثقافته العصرية التي تحيط بالانجازات التي حققها السرد الروائي ، وقدم نصا ملحميا يتنوعات اسلوبية يصدق معها القول الذي يردده احمد الفقيه وهو انه لا يهمل الواقع ولا يكفي به ، وانما يغنيه ويثريه بالحدس والرويا والحلم والفاقتازيا والذهاب الى ما فوق الواقع وما تحته وما حوله ، وبمستويات من الاداء اللغوي ، يناى فيها الكاتب عن استخدام العامية في الحوار ، لكنه لا ينسى ان يعتني بالتباين والاختلاف الذي يناسب اوضاع الشخصيات ، فاللغة التي تتكلم بها الصحفية ماريانا ، في سردها للاحداث ، غير تلك التي يتكلم بها الشيخ القطعي شيخ البادية الذي ترد في روايته كلمات عصية على الفهم احيانا لا يفهمها الاقاريء قريب من البيئة البدوية الليبية ، ويقول المؤلف ايضا ان احترامه للقواعد والاصول لا يعادله الا الهاجس الذي يلح عليه دائما بضرورة التجاوز للقوالب والاشكال الجاهزة ، وهو ما يظهر واضحا في استخدامه لمستويات السرد وما يسمونه وجهة النظر التي يتكلم بها السارد ، فرغم مراعاته للتقاليد التي تعني بتماسك البناء الروائي ، لغته وشخصياته واحداثه وحبكته ، يحتفى بتقنية جديدة عرفتها الرواية البولوفونية حيث تختلط في هذه الرواية الملحمة ، الضمانر ووجهات النظر ، وتعدد الرواة والساردين ، غير الرواي العليم بكل شيء ، وغير تلك الاحداث التي يرويها بطل الرواية بضمير المتكلم ، فان هناك رواة اخرين وساردين متعددين ، خلال اجزاء الرواية ، فهو يستخدم مع ضمير المتكلم ، ضمير الغائب ، وضمير المخاطب ، ويبتدع وجهة نظر في السرد ، غير مألوفة او مستخدمة ، وهي تلك التي جاءت في السرد المكتوب بلسان الشيخ البدوي ، وهو يخاطب شخصا من خلال المترجم

نعم ، قل له ذلك ، وقل له بان الامان في الصحراء ياتي من شعورك

بان الصحراء منك وانت منها

وان بقاءك وسلامتك فيها

بل حياتك فيها ، محكومة بنفس النواميس التي تحكم نباتاتها وحيواناتها

قل له ذلك

وقل له بانني لا اشعر فيها بالوحدة او الضجر

حتى وانا اسير فيها وحيدا

وليس من حولي غير فضاء يسلمني الى فضاء ابعد واكبر

ومفازة تسلمني الى اخرى

لا اسمع فيها زقزقة عصفور ولا طنين ذبابة

لا شيء غير الصمت والفراغ

قل له ذلك

مع ملاحظة تقنية جديدة موجودة في هذا الاقتباس وهي الطريقة التي استخدمها الكاتب في تقطيع الجمل والعبارات بحيث جعل كل الرواية تبدو كأنها مكتوبة بأسلوب الشعر الحديث ، كإشارة الى مرجعيتها باعتبارها رواية تنسب الى ادب الملاحم الذي عادة ما ينقل الى العربية بهذه الطريقة ، تقنية اخرى نجد الكاتب يستخدمها ، إذ بجوار الاقتباسات التي وضعها في مقدمة كل رواية اشارة الى المرجعيات الادبية ومبدأ التراكم وحقيقة ان لا شيء يبدأ من فراغ وانما هو تواصل مع ما قبله وما بعده ، فقد جعل لكل رواية من رواية الملحمة مفتتح من مجموعات شذرات ذات نفس شعري مثل مقدمة موسيقية في كل جزء من الاثنى عشر جزءا .

لابد من القول ، قبل الانتهاء من هذه القراءة ، بان ملحمة خرائط الروح رغم ضخامتها ، وظهورها في اثنى عشر كتابا ، فانها لم تفقد حبكتها ووحدتها وتماسك احداثها وسيطرة الكاتب على خط قصتها الذي يمضي في طريق متصاعد ، توترا وانفراجا ، حتى يصل الى ذراه الفنية العالية ، هابطا بعد ذلك الى براح النهاية المفتوحة والمظلمة ، رغم مأساويتها ، على افاق مستقبل يعد بالخير والحرية والامان ، كما ان ضخامتها تتناسب تماما مع قوة واهمية وضخامة موضوعها ، فهي ملحمة الحب والحرب والرحيل والاعتراب ، فهذه الحالات الاربع تخترق متن الرواية من اول سطر فيها الى اخر سطر ، في حالة تشابك وتتداخل وترابط لا تنفصم عراه ، الا في تلك اللحظات الحالكة السواد ، التي يتدخل فيها الموت ، فلموت حضوره الضروري في هذه الملحمة الروائية التي تعادل الحياة ، تماما بمثل وجوده الضروري في الحياة نفسها ، وتثبت ان الرواية هي الشكل الجمالي الأقدر على الإلمام بحوادث التاريخ العظيمة والتحويلات الكبرى التي تشهدها المجتمعات الانسانية .

هذه رواية تقف شامخة كأكبر انجاز يقدمه احمد ابراهيم الفقيه لمدونة الرواية العربية ويحقق به نبوءة المبدع المصري الراحل يوسف ادريس التي نشرتها مكتوبة بخط يده صحيفة اخبار الادب واعاد ذكرها الروائي الطيب صالح في حديثه عن الكاتب في احتفالية قاعة الكوفة بلندن عندما قال واصفا احمد ابراهيم الفقيه بانه عبقرية قصصية وإنسانية لا أعترف بغيرها في عالمنا العربي . لقد انجز الكاتب وعده ، وابي ان يخيب ظن استاذة وصديقه فيه . ولم يبق الا اطلالة على الاسلوب الذي كتب به الفقيه روايته ، فها هو هنا يصف رحيل البطل عن مدينته طرابلس ، وقد حملته السفينة جنديا لكي يخوض الحرب نيابة عن الايطاليين :

الشاطيء ياخذ تكويننا جماليا مبهرًا كلما اوغلت

السفينة في عمق اليم

يتحول الى هلال ضخم ، يحضن زرقة البحر

باخضاراه المضيء ، اللامع ، واقواس الحجر واوراق الشجر

التي تصنعها الصورة البعيدة ، لأشجار النخيل

وهي تندمج في اجنحة الابار المحاذية للشاطيء

يتضاءل حجم المدينة ، وتتلاشى ابنيته وقصور حكامها

فلا يبقى ظاهرا الا ذؤابات أشجار النخيل ومآذن المساجد
لا بد ان تركب البحر لترى طرابلس
على حقيقتها، هكذا كنت تقول لنفسك طوال الوقت
لا بد ان تبعد عنها لترى الأفق الذي صنعه مأذنة ونخلة
وجناح بنر، وشريط ارض خضراء ، تحف به
سيوف الرمل الحمراء
وكيف يحدد هذا الخط ، بالوانه التي تشبه قوس قزح
هويتها وشخصيتها ، ويقول لحاكمها الإيطالي
افعل ما شاء لك المزاج والفن والجمال ان تفعل
تزويفا وتلونيا لهذه المدينة
من أجل الباسها حلة اجنبية
فانها ستبقى واحة من واحات الصحراء
تحيط بها الارض القاحلة الجرداء ، وكتبان الرمال التي
تتماوج حمرتها المبهجة تحت ابخرة الشمس الحارقة
هذه الرمال التي صنعت ذراعين عملاقين
يحملان الواحة الخضراء ويقدمانها قربانا للبحر
كل شيء يسبح في الضياء الصارخ لشمس الظهيرة
كل شيء يتراعى لك وكأنه ينفك ويتحلل ويسير مبتعدا
عن بعضه البعض . الشاطيء يسير القهقري
متراجعا مبتعدا عن السفينة
والسفينة تسير مبتعدة عن الشاطيء
والبحر الذي تتماوج زرقته وتتحرك مياهه وتتكرر
فوقها اشعة الشمس العمودية ، يسير هو الاخر مبتعدا
عن خط الافق

والرواية كما هو الحال مع اغلب اعمال الفقيه القصصية
والروائية حافلة بلحظات اللقاء الحميمي بين شخصياته
الرجالية والنسائية ، حيث تكون الغواية مصدرا من مصادر
الامتناع وعنصرا من عناصر الاثراء لاجواء القصة والرواية
بما تحمله من كثافة المشاعر وقوتها ، كما في هذه الاسطر

انك مجرد ذرة تسبح
في فيض النور القادم من جبينها ، ذرة صغيرة ضئيلة
تدور في فضاء كونها البديع الجليل
ثملى برحيق حبها السماوي
ولو اشارت إليك من أقصى اطراف
الأرض لجنتها طائرا حتى تهبط جاثيا
تحت قدميها، يحرقك الشوق لأن
تحسو قطرة واحدة من رضابها ثم تموت بعدها

سعيدا راضيا لأنك تكون عندها قد حققت
أجمل أحلامك في الحياة
وذاهلا ، عاجزا عن تصديق ما يجري ، رأيتها تنضو
الروب عن جسمها ، لتبقى في تمام عريها
تحررت من حاجز الثوب الذي يحجب سحر
الجسد المتفجر غنجا وغواية ، فتجلى
في كامل بهائه ، و عنفوانه ، ومجده الأثوي
كما خلقت العناية الالهية ، و ارادته
ان يكون هذه الحورية التي لم ترها من قبل بهذه الصورة
الافى الخيال، مصقولة، لامعة متوهجة
باضواء فتنها ، تشرع أمامك اسلحتها الفتاكة

ملحمة خرائط الروح باجزائها الاثنا عشر ، انجاز جليل على مستوى السرد الروائي وتحفة
ادبية معاصرة ، مؤهلة لان تكون اهم رواية عربية اخرجتها المطابع في العصر الحديث بما

:

«

»

...

_ //07/09/03



تبشّر رواية أحمد إبراهيم الفقيه الجديدة «خرائط الروح» (دار الخيال، 2007) بصفحاتها التي تقارب الألفي صفحة بولادة رواية ملحمية عربية، الى جانب «الحرب والسلام» و «الدون الهادي»، وغيرهما من الروايات العالمية. إذ تضيء بأحداثها العظمية والصغرى تاريخ الصراعات الدولية التي تتقاطع على الأرض الليبية وما جاورها، عشية الحرب الكونية الثانية. وتقذف هذه الصراعات بشخصية روائية إشكالية هي عثمان الشيخ، ليعاني ما يعانيه من أزمات روحية، وتقلبات في الظروف والأحوال، وتحولات واختبارات مصيرية، تجعل منه

بطلاً تراجيدياً، يقارع الأقدار من دون جدوى، وينشد خلاصاً مستحيلًا. خلاصاً فردياً، لا يمكن أن ينفصل في أتون حرب ضروس على بلده، عن الخلاص الجماعي. ويمثل مسار عثمان الشيخ منذ مغادرته قريته منبوذاً، أو شبه منبوذ

لفعلة شنيعة قام بها، الى عودته المظفرة الى بلدته «أولاد الشيخ»، حاملاً رتبة عالية من الجيشين الإيطالي والانكليزي المحتلين، ثم قائداً لحركة المقاومة الشعبية، قبل أن يلقي حتفه. يمثل هذا التواشج الذي لا تنفصل غراه بين مصير الفرد ومصير الجماعة. وهذه المحاولة المخفقة، التي حاول من خلالها البطل التراجيدي، أن ينسلخ عن بيئته وثقافته وتاريخ بلده القديم والحديث.

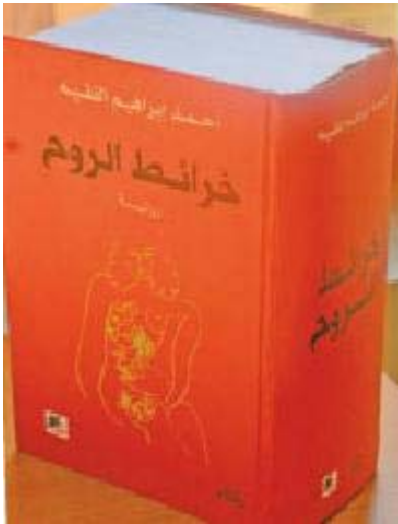
وفي أسلوب «نيو كلاسيكي» مستخدماً الضمائر المتعددة في بعض محاور الرواية، يضيء الفقيه الأحداث من زوايا رصد مختلفة، من دون أن يتخلى عن البؤرة السرديّة الأساسية التي تدور حول بطله عثمان الشيخ. لأن التماهي بين العام والخاص، يبلغ ذروته في حياة هذه الشخصية. فعثمان هو ضمير ليبيا، وسيرة عثمان ملتحمة بمسار التاريخ الليبي الحديث، وتداعياته السياسية والاجتماعية. والروائي الفقيه حاضر في هذه الرواية، لا عبر شخصيته، أو تدخله في مجريات الوقائع، إنما عبر ثقافته العميقة التي يمنحها لبطله عثمان القروي البسيط، الذي لا يتعدى تعليمه المتواضع ما حصله من قراءة وكتابة في بعض الكتاتيب، والتي لا تتلاءم مع ما يتحفظنا به في الفصول الأولى من الرواية، من معلومات عن طرابلس في حلتها الإيطالية، على لسان من هو غريب عنها، فيتحدث عن هندستها المعمارية والجمالية، وآثارها التليدة، وعن التحديث والتقليد، وعن الإضافات واللمسات الفنية الإيطالية، وعن الفنون والمقاهي والأحياء الشعبية والراقية. وغير ذلك من أوصاف تشكل فضاء الرواية المكاني وتثريه، وتدل على عظمة طرابلس عهد ذاك، لكنها أوصاف تصدر عن الكاتب الملمّ، لا عن بطله المتواضع. وهذه الوقفات الوصفية تتعدد في معظم فصول الرواية، وتستهلك الصفحات الطوال، وعلى رغم غناها بالتفاصيل والمعطيات، إلا أنها تبطئ من انسيابية السرد المشوّق.

في «خرائط الروح» ينفذ أحمد إبراهيم الفقيه غبار الإهمال والنسيان عن تاريخ ليبيا، ويقدم في هذه الرواية الملحمية سرداً تتزاحم فيه روح المؤرخ وروح الفنان، لينسج لنا تاريخاً إنسانياً ووجدانياً حياً، في زمن الاحتكاك بين الحضارات والقوى والمصالح والأفكار، وهو احتكاك حول طرابلس آنذاك، الى مختبر عظيم للتيارات والمفاهيم كافة. حيث ظهر وجهها الكوزموبوليتي، الذي يقوم على وجود جاليات أجنبية من كل الأجناس والأعراق والثقافات والتقاليد والأذواق، تتعايش الى جانب أهل البلد، وترسب أو تتجاوز فيها الطبقات الحضارية والتاريخية.

وهذا المزج عند الفقيه بين المهارة الروائية الدرامية، والمعطيات التاريخية التي تتجلى في معاينة ما يدور على أرض المعارك الحربية، في صحراء ليبيا وفي الحبشة وعلى الحدود. وما يُحاك في داخل القنصليات وبيوت الولاة والحكام الأجانب من دسائس. إنما تخدم أفكاراً عدة تنضح بها الرواية، أهمها أن مصير الإنسان، كما هو مصير الأمم تصنعه الحروب. فالحرب هي سنة من سنن التحول في الدول والمجتمعات. ورحاها هي اختبار للقوة والإرادة وإثبات الذات.

صعوبة الخيارات

يمثل تاريخ عثمان المحارب رغباً عنه، في الجيش الإيطالي ثم الإنكليزي، موضوع الصراع بين القوي والضعيف، والتحام القضية العامة بالخاصة. ويعيد طرح معنى الولاء الوطني والخيانة، حيث الخيانة ليست خياراً حراً، في ظل هيمنة القوي على الضعيف. إنما ثمرة صراع مرير في داخل الإنسان. والكاتب هنا يعيد النظر بتاريخ الاستعمار، على غير ما درجت عليه الأدبيات السياسية الوطنية العربية، من تعارض مطلق بين الخير والشر. الخير الذي يمثله دائماً أبناء الوطن، والشر الذي يمثله المحتل. في حين أن مثل هذه الحدود غير موجودة في الواقع. إذ يذكر الفقيه في روايته أن بعض شعراء الوطنية القدامى من الليبيين، كانوا يكتبون قصائد التمجيد لحاكم ليبيا الإيطالي. ويذكر إلى جانب الجنرال الفاشي جرساني الطاغية المستبد، والنقيب توسلي، المارشال ايتالو بالبو، الحاكم المتنور والمتسامح الذي كان يرعى شؤون الليبيين، ويشيد لهم الصروح.



يتماهى عثمان في بعض مراحل حياته مع المحتل، وهو تماه يذكرنا به «فرانز فانون» باعتباره سلوكاً تعويضياً تتماثل فيه الضحية بجلادها، في ظروف القهر والاستعمار. وفي سعيه إلى اكتساب نفوذ شخصي وهيبة اجتماعية، يبدأ عثمان خطوته الأولى في معسكر التدريب الإيطالي، حينما يؤدب المجندين من أبناء وطنه، نيابة عن الشاويش عنتر، ثم بالأصالة عن نفسه. ويترقى في عمله مع الزمن، ويخوض غمار حروب عدة في صفوف الإيطاليين والإنكليز، ليقوم أخيراً مقام رؤسائه

الكبار في إدارة شؤون البلاد. إلا أن هذا الانزلاق إلى حضن المحتلين يُرجعه إلى

ظروف قاهرة، تورّطه أكثر فأكثر في علاقته بهؤلاء. لكن بطل الرواية ينطلق في أساس تكوينه الشخصي، من رؤية تعتبر خلاصه الذاتي أولوية، بصرف النظر عن خلاص الجماعة. فعنوان حركته «دع عقلك لا ينشغل بأي شيء آخر غير خلاصك الشخصي». وهي حركة نرصدها، لكن في ظروف أخرى، في روايات نجيب محفوظ، حيث تصبو بعض شخصياته الى الارتقاء الطبقي، والوصول الى الثروة والوجاهة، عبر التزلف والمداهنة، وعبر التخلي عن الكثير من المبادئ والقيم التي تربّت عليها. هل كان عثمان انتهازياً ووصولياً، أم كان واقعياً براغماتياً؟ هل كان مصيره محتوماً، أم هو الذي قاد نفسه الى ما كان يرتجيه ويتمناه؟ تلك هي الإشكالية التي تطرحها الرواية، فلا ندري إن كان ما يحدث لعثمان عن سابق تصور وتدبير، أم محض مصادفة غير منتظرة. أو إن كان منطقه الذي يقول انه يخدم بعلاقاته ونفوذه أبناء وطنه، ويعينهم بما مُنح من سلطة، على تجاوز ما يتعرض له من صعوبات وعوائق، منطقاً وطنياً واقعياً أم تسويغاً ذاتياً؟

ومن خلال كل هذه الإشكاليات يتمكّن الكاتب عبر سلوكية بطله وأفكاره، أن يطرح التساؤلات عن السياسة وعن المصير الإنساني. فالرواية بهذا المنظور اختبار حي لأفكار كثيرة تدور حول دلالة الوجود، وحول تجربة الصراع الدارويني من أجل البقاء، والعيش في الحروب على حافة الموت، وحول الحرية والعبودية، والقضاء والقدر، والتقدم والتأخر، وعلاقة الشرق بالغرب... وإعادة النظر في معنى الوطن والمواطنة في ظل العجز والخوف والجوع. وسوى ذلك من موضوعات يحرص الكاتب على تظهيرها، من خلال الأحداث وعلى السنة أبطاله العديدين.

في رواية «خرائط الروح» تتصاعد حركة الأحداث في مسار ينطلق من الداخل، الى خارج الحدود الليبية، الى مصر والحبشة. ومن العاصمة الى مناطق الصحراء، ومن الجبال والبحار الى الغابات والواحات. وتتشكل صورة بانورامية عن الحياة داخل الثكنات، وداخل السجون والقصور. وعن العادات والعقائد والأنظمة الاجتماعية، والتحويلات في العمران والاقتصاد والسياسة. وعن اختلاف النظرة الى الموت والجنس والحرية والدين. وتعبّر هذه الحركة التي تتقاطع خطوطها وتتداخل عن انفتاح الفضاء السردي وتنوعه واتساعه، الذي يتفاعل معه بطل الرواية، ويكابد ما يكابده من مخاطر وصعوبات، لتصهره في أتون التجربة الإنسانية الشاقة، وتطهره من ذنوبه. وهذه حال البطل الإشكالي الذي يقف عادة، على مفترق صعب من الخيارات الملتبسة والمفارقات الحادة.

وفي فصل «ميرانا» من الرواية ترسم الصحافية الهندية، سيرة عثمان لترسلها الى صحيفتها، بعد أن قتل في غارة فرنسية، على إنها حياة صنعتها المعاناة، والعبور المضني من الشك الى الإيمان، ومن القلق الإنساني البسيط من أجل لقمة العيش، الى البحث الدؤوب عن معنى الحياة. شخصية ظلت حتى بعد موتها في سبيل الوطن، شخصية ملتبسة اختلف الناس في النظر اليها اختلافاً جوهرياً. فعثمان هو رجل المفارقات الصارخة، فقد انتقل من كونه وصولياً وماجناً ولاهياً، وصاحب فحولة خارقة، ومتعاملاً مع أعداء الوطن. الى معالج روحي وصاحب كرامات. ومن جندي ثم ضابط في جيش المحتل، الى مقاوم شريف يسعى الى دحر الأعداء والمحتلين.

المرأة المثال

وعلى عادة خليل الإمام بطل الفقيه في «ثلاثيته»، تشكل مغامرات عثمان النسائية محوراً أساسياً في الرواية الجديدة، فتحيط به ثريا وحرورية وفرنشيسكا ونورية وإيزابيلا وسارة وعايدة. وتحتل «تيمية» المرأة المثال مركز القلب. وهي هنا حرورية وثريا. أما السنيورة حرورية الليبية عشيقة حاكم البلاد الإيطالي المارشال ايتالو بالبو، فهي تتحول بين يدي عثمان الى هالة نورانية، حيث يترقى من وصف مفاتها الأنثوية، وجموحه الإيروسي، الى حال من الإشراق والصفاء الروحيين. وتغدو الأمكنة التي يكون فيها مع المرأة، أمكنة أثيرية تتضافر فيها الأحاسيس مع الخيالات والمشاعر، لتشكل لوحة شاعرية، يتمازج فيها جمال المرأة بجمال الطبيعة (وصف فرنشيسكا وهي تستحم في الغابة الأثيوبية). وكل جسد أنثوي هو بين يدي عثمان، كما كان بين يدي خليل الإمام، في الثلاثية رعشة فردوسية. أما ثريا فهي الحبيبة الأولى. وهي الأيقونة التي يبهت بريقها مع الزمن، وتتداعى صورتها، بعد عودته من الحرب، وتتوارى في الظل، ليبقى طيفها ذكرى من ذكريات البطل المتكاثرة. كذلك تثير علاقته مع فرنشيسكا المراسلة الحربية الإيطالية مسألة فرويدية، هي الارتباط بين النزعة الجنسية والموت.

بيد أن المرأة ليست في «خرائط الروح» موضع العُلْمَة ومثار الشهوة فحسب، إنما هي قضية تطرح مسألة التقدم الاجتماعي والفكري الذي تمثله في الرواية عايدة. إذ تربط تحرير المرأة من التقاليد البالية كشرط من شروط التحرر الوطني. كذلك لا يمثل طلب حرورية الملح من عثمان أن تنجب منه طفلاً، التماساً للأومومة المنشودة عند كل أنثى، بقدر ما هو طلب للانتماء الى هذه الأرض، لتكون أماً مجبولة بتراب

الوطن، وجزءاً من هويته الوطنية. في رواية الفقيه هذه، بل في معظم رواياته وأقاصيصه يحمل بطله اعجاباً بالتقدم التكنولوجي، والإنجازات العلمية. وهو يرجعها الى الحضارة الغربية، التي تمثلها في الرواية إيطاليا، فقد جاء الإيطاليون بالطعام والدواء والتقدم الزراعي والطرق الحديثة. ولأنه يؤمن بدور العلم كرافعة للنهوض الاجتماعي. فإنه ينتقد اعتصام أهل بلده بالكتاب، بدل التعلم في المدارس الإيطالية الحديثة. وعلى رغم العمق الديني عند أبطال الرواية بمن فيهم عثمان نفسه، فهو يرى الى العقائد الشعبية الأسطورية والخيالية، والى التعازيم والرقى والشعوذات والكرامات والتنبؤات عاملاً من عوامل كبح العقل عن حل المعضلات الاجتماعية والسياسية، بالاعتماد على قانون الطبيعة وسنن الحياة. ويدعو الى الإصلاح السياسي والاجتماعي، والى التسامح الديني ووحدة الأديان التي تمثلها سارة اليهودية، التي يتعاقب الى الزواج منها، رجال من الديانات السماوية الثلاث، وتمارس طقوس هذه الديانات معاً من دون تفرقة أو إثارة. لا يرسم الكاتب في «خرائطه» خطأ مستقيماً ووحيداً للنفس البشرية، بل خطوطاً متعرجة ومتداخلة هي من طبيعة النفس وجوهرها. وبهذه الرؤية يشبه بطله عثمان كثيراً من الناس الذين يعانون صعوبة تحديد خياراتهم. ومن أجل هذا ربما احتل عثمان موقع النموذج والرمز في الرواية العربية الحديثة

وهذه كلمة احد الاصوات الشابة في مجال النقد الاستاذ احمد سعيد احد المردين لامير الرواية الراحل الاستاذ نجيب محفوظ واقرب الادباء الشباب اليه ،التي يرحب فيها بهذا الانجاز مسميا اياه الادويسة الليبية

الأوديسة الليبية

ملحمة عثمان الحبشي - رواية الفقيه الاثنى عشرية

أحمد سعيد*

صراع الذاكرة مع النسيان هذا ما تصوغه الملحمة الاثنا عشرية " خرائط الروح " للروائي الليبي الكبير احمد ابراهيم الفقيه ، ذات الأبعاد الأسطورية ، والتداخلات الدرامية والتقاطعات الإنسانية ، حيث هي رواية عابرة للامكان والأعراق والثقافات ، مع ثراء في التنوع الدلالي والتشكيل السردى ، والفضاء الزمكاني للقص ، المخيال الواسع ، والتجول بين ثنايا الذات والمكان والتاريخ.

نرتحل مع عثمان الحبشي الهارب من الملاحقة الأخلاقية والنبد القبلي في صحراء قاحلة تعجز عن إدراك إمكانياته ، واستيعاب طموحاته ، ليخرج عثمان الشيخ كما خرج عوليس ، واخيل ، يرتحل من جحيم المفازة الصحراوية ليفوز بذاته ، وكما ارتحل وخرج موسى من ارض العبودية ، وكما خرج عيسى ليضع عهدا جديدا ، ويعيد عبر طريق الألم الدرامي ، والدخول في خرائط الروح ، قيامة الإنسان الجديد ، عثمان الشيخ في تحولاته الكثيرة ، الذي اصبح عثمان الحبشي ، الطريد ، العاشق ، السلطوي ، الوطني ، الصوفي ، الأسطورة .

خرج عثمان الشيخ من قريته ذليلا ، حقيرا ، بعد ضبطه متلبسا مع عزيزة ، فكان خروجه تحقيقا للذات ، عبر المعاناة المرة ومكابدة الحصول على خبز المدينة ، مدينة طرابلس التي يصل اليها معدما في زمن الاحتلال الإيطالي ، فترة حكم المارشال ايتالو بالبو ، ومباشرة بعد اعدام شيخ الشهداء عمر المختار ، و انتهاء الثورة المسلحة التي قادها ، وانحسار حركة التحرر الوطني ليها الاستعمار بالسيطرة على البلاد ، وليجد عثمان الشيخ نفسه ، امام واقع مختلف عن واقع الواحة الصحراوية التي جاء منها ، فيعمل إسكافيا ، لان تعليمه الديني لا يؤهله لأي عمل آخر في دولة الاحتلال الإيطالي ، ثم يجد نفسه منخرطا في الجيش الإيطالي الذي تعده إيطاليا لغزو الحبشة ، ليكون ضمن جنود هذه الحملة ، ولتشهد الملحمة التي يخوضها في الحياة واحدا من اكثر فصولها قوة وإثارة حيث يقع في الأسر الحبشي وينجو من الذبح باعجوبة ، و يحقق بطولات تتيح له فرص الترقى والاعتراف بمهاراته القتالية ، ومن حرب الحبشة يجد نفسه مقدوفا به في الحرب العالمية الثانية في الصحراء الغربية ليبدأ محاربا في صف الإيطاليين ضد الحلفاء ثم ينتقل بسبب ظروف وملابسات محلية ودولية الى ان يصبح محاربا مع الجيش الشعبي الليبي المنخرط في صفوف الحلفاء ويسهم في هزيمة الجيش الإيطالي ، الألماني . إحدى المفارقات الكبيرة التي عاشها جيل من الليبيين كان الحبشي رمزا وتعبيرا عنه ، متعايشا مع تلك المتناقضات ليصل بتفكيره البرجماتي الى ان يكون

مساعدًا للوالى البريطانى الذى استلم الحكم بعد سقوط الإدارة الإيطالية فى طرابلس . وتتواصل المسيرة عبر أسلوب مليء بالتوتر ولحظات التصعيد والانفراج واستخدام تقنيات سردية كثيرة التنوع، وتلوينات فى المعالجة والتناول يدخل فيها الديالوج والمونولوج واللغة المتدفقة ، ذات الأبعاد التراثية والشعرية، واللعب بين تخوم الواقع والفتازيا، والحقيقة والخيال ، وعدم الاكتفاء بالسارد الواحد العليم بكل شيء، وإنما يستخدمه بجواره يستخدم ضمير المتكلم وضمير المخاطب ، ويجلب شخصيات تتكلم بنفسها داخل النص غير بطل الرواية ، وينتقل بسهولة بين الماضى والحاضر واستشراف المستقبل ، مستفيدا من واقع يزخر بالأحداث والتحويلات الكبرى المعجونة بطين الحياة الشعبية وعبير الأرض والناس حيث لا يكتفى برصد الصراعات السياسية التى تظهر على السطح وإنما يغوص بعمق وقوة ودربة وفهم للوقائع التاريخية والنفسية التى تصنع الأحداث وتتمرر كل هذه الأحداث من خلال فكر وفعل ووجدان هذا الإنسان الذى يدور حوله هذا العمل الكبير عثمان الحبشى لنرى صورته معكوسة فوق كل المرايا وتحت مختلف الأضواء ، فلا يبقى جانباً من حياته ، الا وظهر للقارئ واضحا كل الوضوح ، فى ضعفه وقوته ، فى لحظات انكساره وانتصاره ، فى استجابته لقوة الغريزة او مقاومته لها ، لتكون الرواية بحق رحلة مع خرائط الروح والمسالك التى تسلكها والمنعرجات التى تعبرها والمنخفضات والسفوح التى تسقط فيها أو الذرى التى تصعد إليها ، نراه وهو يمر باختبار القوة والسلطة ، ثم سقوطه من هذه السلطة هاربا باتجاه الصحراء التى خرج منها ، ونحو الحمادة الحمراء التى شهدت سنواته الأولى وهو يدرج فى هذه الحياة ، بعد ان عاش رحلة ثرية ، وسلك دروبا صعبة وعرة ، وانتقل من الغابة الى مدن الرمل ، ومن الرقص مع الذئاب فى الأدغال الى التبرك بغبرة المسك فى حلقات الصوفيين ، ومن زغاريد الحرب والقتال فى حقول الموت والقتل الى زغاريد الجن فى حقاف وكهوف الهروج السود فى الصحراء الليبية ، وهنا تمثل الرحلة فى الصحراء والعيش فى متاهتها ، رحلة للتطهر وعودة للجذور ومواجهة للذات مع نفسها والتقاء بجوهرها الانسانى الذى تاهت عنه لسنوات طويلة ، انها رحلة علاج من التشوهات التى اصابته بها مرحلة الانخراط فى جيوش الاحتلال والعمل تحت اوامر الاسياد الاجانب فى الحرب والسلم بما يتناقض احيانا مع قناعاته وحسه الوطنى ، بسبب الخوف او بسبب الطمع والاستجابة لاغراض دنيوية صغيرة. فى الصحراء يتحقق الالتقاء بين عثمان الحبشى القديم ، وبين عثمان الحبشى الجديد ، الذى بدأ يتواصل مع جذوره وتاريخ اهله ويعيد شحن ذاته بتراث اهله واجداده بما فى ذلك الاتصال بذلك الطابع الصوفى الذى ميز الحياة فى الصحراء .

اوجه عثمان الحبشى

عثمان الحبشى تعبير اذن عما حدث للذات الليبية التى ترتبط بجذورها الصحراوية وتحاول ان تتواصل مع الحداثة ، وتحمل داخلها وفى عمقها ، الزماني والمكاني ، الارض والتاريخ ، تلك الرقائى الحضارية التى صنعت تراثها (الاساطير ، ووظفوس اللاهوت الصوفى الصحراوي اذا جازت التسمية) كما تحمل فى طبيعتها

النارية تمردا وفحولة ومجابهة للبيئة القاسية وظروف الحياة الشاقة ، وثورات متواصلة ضد موجات الغزو الاجنبي ، وبطولة نادرة في المحافظة على جوهر الحرية الذي يمثل جوهر العيش والبقاء بالنسبة لابن الصحراء ، وهي فصول عاشها عثمان الحبشي نضالا وتحرا واستشهادا ، دون ان تكون الرواية رواية صحراء حقا ، ما عدا في جزء منها ، لا يزيد عن ثلاث روايات مكرسة تكريسا كاملا للصحراء ، وهي هنا صحراء عربية بتراتها العربي ، وليس كما في روايات كتاب اخرين ، صحراء افريقية او طاريقية مسلوخة ومعزولة عن الثقافة العربية ، فسيرة اهل الصحراء هي السيرة الهلالية وابطالهم هنا هم ابطال العرب بدءا من عنزة العبيسي الى غومة المحمودي البطل الاسطوري الليبي الذي تحتفى الرواية في جزئها الصحراوي بتاريخه ، اما بقية اجزاء الرواية ، التي تنقل بالتالي اجزاء من حياة عثمان الحبشي ، فهي متوزعة على مختلف البيئات والبلدان في حالة اشتباك مع اوطان وثقافات ومجتمعات غير ليبيا فهي في الحبشة وادغالها في العمق الافريقي ، هي في الحرب العالمية واطرافها من عرب ليبيا وعرب مصريين والمان وبريطانيين ، ومسرحها طبعاً في الصحراء الغربية بجانبها الليبي والمصري ومشاركة من جنود مجلوبين من قارات العالم الخمس ، ثم هي في النضال ضد الفرنسيين الذي يتوحد فيه الليبيون مع الجزائريين مع التونسيين وتجسد هذه اللحمة التي ربطت بين الشعوب الثلاثة ، كما ظهرت في الرواية شخصيات كثيرة ، اجنبية اوروبية ، اغلبها ايطالية في العهد الفاشي دون ان تكون كلها شخصيات فاشية ، ثم شخصيات كثيرة نسائية محورية مثل ثريا وحرورية من طرابلس وفرانثيسكا الايطالية وسارة اليهودية وميرانا الهندية البريطانية ، حيث تتوهج لحظات الحب في هذه الرواية حتى لتصبح في بعض اجزائها روايات حب وجنس بامتياز ، وفي بعضها روايات تصور الحرب والصراع والسياسة على المستوى الوطني والعربي والدولي ، دون ان تتحول في أي جزء من اجزائها الى رواية اطروحة سياسية ، انها باختصار رواية الحياة ، والبحث عن جوهرها ومحاولة الوصول الى وضع خريطة لروح الانسان من خلال المكابدات التي يعيشها ابطالها وفي مقدمتهم بطل الرواية عثمان الحبشي باوجهه المتعددة والمتقاطعة والمتوازية والمتداخلة ، يقدم من خلالها الكاتب طوبوغرافيا الذات والوجود والوعي ويصوغ في النهاية ذاتا مستقلة بنفسها ، قابضة على مصيرها ، تسوقها ارادة قوية للخروج من دوائر الرمل وصحراء المتاهة وصولا الى الحب والعقل والسلام ، وملتقى به شخصية في الفن اكبر واكثر حضورا من اية شخصية في الحياة كما هو الحال مع ابطال السرديات الكبرى واعمال الابداع التي عاشت عبر التاريخ.

الادوية الليبية

كما صاغ هوميروس التاريخ البطولي الملحمي لليونان ، كتب الفقيه هذه الملحمة المستمدة من التاريخ الليبي الحديث ، لتتواشج وتتكامل مع تلك الملحمة التاريخية وغيرها من ملاحم عرفها تاريخ الادب تتحدث عن رحلة الشعوب عبر دورب الحب

والحرب والكفاح والسلام والهدم والبناء والغزو والاحتلال ، كما في خرائط الروح التي كتبها الفقيه متشابكا ومتقاطعا مع تاريخ المنطقة العربية ، واقدارها من خلال الاستعراض المكاني والتطور الدرامي وفضاءات العالم الروائي ومناخاته، بادنا بالصحراء وعاندا اليها ومنتقلا منها الى رحلات في العمق الافريقي وداخل الغابة ، واخرى عبر متاهة البحر ، وثالثة في خضم الحرب الليبية الايطالية والحرب الايطالية الحبشية وصولا الى الحرب العالمية الثانية باطرافها المتعددة واماكنها المتوزعة على رقعة الصحراء الغربية والشمال الافريقي والشاطيء الجنوبي للبحر الابيض المتوسط ، واذا كانت الدراما في الملحمة الاغريقية تصنعها الالهة التي تديرالعالم من جبال الاوليمب ، فان للملحمة الروائية الجديدة الهة ممسوخة تعبت باقدار البشر من امثال هتلر وموسيليني وتشرشل وجرسياني وبادوليو وغير هؤلاء من ضباط يديرون الصراع على ارض المعارك كما كان الحال مع رومل ومونتوجمري ، دون ان ننسى آخرين يديرون الصراع السياسي كحكام محليين امثال بلاكلي وكلايتون وبالبو، كل ذلك في خطوط تتوازي وتتقاطع مع جوانب اجتماعية واقتصادية و عاطفية وجمالية وابعاد انسانية فوق قماشة عريضة ثرية بالوانها التراثية وتنوع العادات والتقاليد والعقائد والمواريث التي تحفل بها البيئة الليبية وما فيها من تباين بين مناطق الجبل والصحراء والساحل والواحة والمدينة ، زاخرة باساطيرها وفنونها ورواها الاجتماعية ومستويات المعيشة ووسائل الانتاج واساليب التعبير ومفردات الحياة اليومية مع ما تضيفه الانثيات الكثيرة التي كانت تعيش مع الليبيين من ايطاليين ويونانيين ومالطيين وارمن وعائلات ذات جذور تركية، من لون ونكهة وما يحصل بينها وبين محيطها الليبي من تداخل وتمازج ، دون ان يفقد البناء القصصي في الرواية تصاعده ، او يتوه بالقاري ويضيع به بين تفاصيل الاحداث التاريخية التي تزخر بها المرحلة ، وانما تبقى جميعها مسخرة لخدمة البناء الدرامي القصصي وتعميقه وازافة زخم وقوة ودفع لتصاعده واضطراده ، ليشد القاريء الذي يقرأ هذه الرواية الطويلة مستعجلا على تقليب صفحاتها في سباق مع احداثها واستمتاع بلغتها السردية المتدفقة ذات النفس الشعري الذي يضيف حركة الى حركة الاحداث ولا يشكل عبئا عليها بل ايقاع سريع ، كنبض القلب لهذا العمل الملحمي الذي يشكل سجلا جماليا للتاريخ الليبي المعاصر، دون ان يكون عملا تاريخيا ، فالتاريخ هو الخلفية لعالم الرواية التي يبقى موضوعها الجوهرى كما يشير اليه العنوان هو الروح وتتبع الخرائط التي تسلكها .

بالبو وحورية

جدلية الحياة تحت الاحتلال

التاريخ في الرواية ، كما يعلم القاريء يختلف تماما عن ذلك الذي نقرأه في كتب التاريخ ، وايتالو بالبو مرشال الفضاء الذي ارسله موسيليني ليكون حاكما في ليبيا خلال عقد الثلاثينيات ، له هنا وجه انساني ، رغم هويته الفاشية الاستعمارية ، لا يستطيع ان يرسمه الا عمل سردي روائي ، يهتم بالجانب الاخر له كانسان عاشق ، يحب فتاة ليبية هي حورية ، التي كانت عونته في طموحة لان يستقل بليبيا

عن ايطاليا، خاصة بعد ان انضمت ايطاليا الى المانيا في الحرب العالمية ، وهي شراكة كان يعارضها ، وحاول تخريبها من خلال القيام بشيء يشبه ما عمله الجنرال ديغول وهو ينشئ خارج فرنسا وفي معارضة لحكومة فيشى دولة فرنسا الحرة ، هذا الحاكم الذي مات قتيلًا بما اسموه نيرانا صديقة ، في ذلك الوقت ، اتضح فيما بعد ان رمي طائرته بقتابل المدافع الايطالية لم يكن خطأ وانما باوامر من موسيليني الذي تسربت اليه عن طريق مخابراته وعن طريق الجوستابو مخابرات حليفه هتلر بعض نوايا هذا الحاكم الذي تقدمه الرواية منذ البداية حاكما مختلفا عن سابقه الدمويين واشهرهم جزار ليبيا جرساني ، فقد جاء بسياسة الاستيعاب بدل سياسة الانهاء والاقصاء لسابقه ، لتظهر شخصيته على المستوى الروائي شخصية شديدة التركيب والتعقيد ، يختلط فيها الضوء بالظل والشر بالخير والحب بالحقد والكرهية ، وتؤمن به حورية ، عشيقته اللبية ، الى حد ان تدفع حياتها ثمنًا لهذا العشق . ولكن ليست قصة بالبو ومصرعه او دراما حياته وموته هو الهدف ولكن الهدف هو تقديم الايات السلطة وابنيته من خلال هذا الحاكم وحكام اخرين قبله وبعده باعتبار ما تعنيه بنية السلطة في الحياة امس واليوم وغدا من تاثير على المسيرة البشرية ، فالرواية معنية بهذه القضية التي اولتها في كل اجزائها اعتبارا خاصا في تفاعل واشتباك مع بنية النص نفسه حتى لتصبح جزءا منه . الحاكم الاستعماري ليس دائما كتلة من الشر ، كما ان البطل الاسطوري ، الذي يمثل النضال من اجل الحرية مثل شيخ الشهداء عمر المختار ليس دائما كتلة من النور، فهناك من نراه يصرخ فوق صفحات الرواية من بؤساء الليبيين باعتباره ضحية لهذا البطل الاسطوري ، وهكذا نجد الكاتب يقلب كل الاحجار ، ويناقش كل المسلمات ولا يرضى بسردها هو معروف وثابت تاريخيا ، وانما يبحث في التاريخ نفسه عما اهمله التاريخ ليقوم بتسجيل المسكوت عنه في تفاصيله الانسانية والجمالية التي لا نلتقى بها الا في مثل هذا العمل الملحمي السردى الذي يقف شامخا يوازي اعظم ما انتجته عبقرية الخيال عند الادباء قديما وحديثا

اليهود الليبيون

لا ادري ان كانت هناك اعمال قصصية او روائية ليبية تناولت العنصر اليهودي في ليبيا كما عمل ادباء اخرون في مصر وتونس والمغرب والعراق والشام وغيرها ، لان هذه الرواية الاثنى عشرية بالنسبة لي هي اول عمل روائي ياتي من ليبيا ويشكل فيه الحضور اليهودي احد مفردات الواقع الليبي الحديث ، خاصة في الفترة التي تتحدث عنها الرواية وهي الثلاثينيات والاربعينيات والى منتصف الخمسينيات حيث كان اليهود يمثلون ملمحا بارزا من ملامح الحياة الشعبية في مدن وقرى ليبيا ، ويظهر الفقيه في خرائط الروح حراكمهم الاجتماعي والثقافي والاقتصادي ، ودورهم كطائفة مهمومة بالهم الليبي ، وتداخلهم مع المجتمع الليبي دون تعرض للتمييز او الاضطهاد ، وبمثل ما هناك شخصيات تمثل شخصية الجيتو اليهودي المنعزلة فان هناك شخصيات في الرواية ذات افق مفتوح على المجتمع والحياة الحديثه مثل سارة التي تعتق بجوار اليهودية الديانتين الاسلامية والمسيحية ،

وبنجامين ركاح الذي كان اول من جلب مطبعة الى طرابلس ، وغيرهما من شخصيات تدل على روح التسامح التي كانت تسود بين الاعراق والاديان في ليبيا ومدى تسامح واريحية الشعب الليبي عندما كان يعيش بعيدا عن التأثيرات السلبية التي انتجتها مضاعفات الصراع العربي الصهيوني واحتلال فلسطين .

السياسة ليست بعيدة عن خرائط الروح ، ولكنها بجرعات محسوبة ، باعتبارها جزءا من حقائق الحياة ، وعاملا من عوامل تكوين وصياغة المجتمعات ، عدا ذلك فان خرائط الروح هي رواية علاقات انسانية ، تقدم بانورما عريضة ، زاخرة بالايحاءات والصوروالاحداث والنماذج البشرية ، تتشابك فيها مصائر الناس وتتداخل فيها ثقافيا وحضاريا وانسانيا الى حد تضع معه العوالم التي استمد منها الكاتب مادته ، لتصنع عوالم جديدة هي الحياة في صيرورتها الكبرى نلتقى بها ونتفاعل معها ونجد فيها صورتنا مهما تباعدت المسافات بيننا وبين البلاد التي استوحى منها الكاتب كتابه ، ليبيا الحديثه ، لان خرائط الروح ، هي بجدارة وقوة واقتدار ملحمة انسان العصر الحديث اينما كان من هذا العالم الذي نعيشه ، وخطوة متقدمة على طريق المنجز الروائي العربي ، لا ابالغ اذا قلت انها تشكل تدشيننا لعصر جديد في الرواية العربية.

* كاتب مصري

تحمل الرواية الاثنى عشرية خرائط الروح العناوين الفرعية
التالية وهي: خبز المدينة – افراح آثمة – عارية تركض
الروح – غبرة المسك – زغاريد لاعراس الموت – ذئاب
ترقص في الغابة – العودة الى مدن الرمل – دوائر الحب
المغلقة – الخروج الى المتاهة – هكذا غنت الجنيات – قلت
وداعا للريح – نار في الصحراء (هي نشر مشترك بين دار الخيال
الليمانية ، ودار الفرجاني الليبية) .